مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد ٩، العدد ٣٤ (ربيع ١٩٩٨)، ص ١٣٠

الشهادة الرابعة[١]

"كم من مرّة اقتلعت الرياح الخيام
ووجدنا أنفسنا نائمين في العراء"

- الاسم: محمد ذيب الحوراني
- العمر: ٧٠ عاماً
- مكان الإقامة الحالي: عين الباشا/الأردن
- البلد الأصلي: المسمية الصغيرة/قضاء غزة
- تاريخ الاحتلال: ٨ ـ ١٩٤٨/٧/٩

تعود بي الذاكرة إلى سنة ١٩٣٦، سنة الثورة والإضراب الكبير. كنت طفلاً آنذاك، غير أن صورة متكررة لم تغب عني.. صورة الإنكليز وهم يطوّقون قريتنا ويعيثون فيها فساداً، في إثر كل عملية فدائية كان يقوم بها الثوار ضد أهداف يهودية في المنطقة.

عندما كبرت، وأصبحت قادراً على حمل السلاح، شاركت مثل غيري في عدد من المعارك... في باب الواد، وباب الصرار، ودير محيسن. كانت المعارك تشن بأسلوب مرتجل، وعلى طريقة "الفزعة"، من غير أي تخطيط، وفي غياب كامل للقيادة الواعية، من دون أن نتنكّر لمحاولات مخلصة بذلها وطنيون من أجل ذلك، كان على رأسهم عبدالله محمد حسين مهنّا، المرجع الوطني الأول في منطقتنا.

بندقيتي الأولى، حصلت عليها عندما عملت عدة شهور في البوليس الإضافي الإنكليزي، تدرّبت في الرملة، وعملت في "كامب" دير دراس القريب من المطار العسكري. وذات يوم قررت وابن عم لي، اسمه حسن علي، وكان يعمل معي في سلك الشرطة، أن نستولي على بندقيتينا ونهرب بهما. حدث ذلك في الشهور الأولى من سنة

[١] أعدّها فاروق وادي. وقد أُجريت المقابلة في عمّان، في شباط/فبراير ١٩٩٨.

١٩٤٨، وعندما جاءنا تبليغ بالاستغناء عن خدماتنا، أثار استغرابنا أن الإنكليز لم يسألوا قط عن البندقيتين اللتين أصبحتا في حيازتنا!

ذات يوم، أواخر سنة ١٩٤٧ أو أوائل سنة ١٩٤٨، كنت أعمل في الحقل، عندما قررت مجموعة من ثوار قريتنا، وعلى رأسهم أخوا زوجتي: عبد الرحمن عبد الهادي الحوراني وإبراهيم عبد الهادي الحوراني، شن هجوم على مستعمرة قريبة من بيت دراس، وكان معهم ابن عمنا محمد عبد العزيز، الذي جاء إلى بيتنا وطلب من أم أحمد، زوجتي، أن تعيره بندقيتي المعلّقة على الحائط، لمشاركة أخويها والثوار في عملية الهجوم على المستعمرة، فلم تتردد في ذلك. أخذ البندقية وانطلق مع ثوار القرية والقرى المجاورة: المسمية الكبيرة، وتل الترمس، والقسطينة، وبيت دراس... وغيرها، وخاضوا معركة مع اليهود ببنادق متواضعة شاركت في الحرب العالمية الثانية وجيء بمعظمها من مصر. كانوا يواجهون دبابات اليهود ومصفحاتهم بهذه البنادق، فسقطت قذيفة أودت بحياة الأخوين عبد الهادي وإبراهيم الحوراني، اللذين استشهدا على الفور، ومعهما استشهد ابن عمنا محمد، الذي كان يقاتل ببندقيتي.. وقد ظلت البندقية هناك، على أرض المعركة. وما زلت أذكر تلك اللحظة التي جاءت فيها العربة وهي تحمل جثث الشهداء الثلاثة. كانت لحظة قاسية وحزينة. توجهت العربة فوراً إلى الجامع للصلاة عليهم.. ثم تم دفنهم بدماء الشهادة. أذكر صلابة والد الأخوين الشهيدين، الرجل المؤمن، وذهول شقيقهما الصغير عبدالله، الذي كان في السادسة من عمره آنذاك.

بعد معركة بيت دراس، ازدادت تحرشات اليهود بنا وبالقرى المجاورة. وكان الشبان، أمثالنا آنذاك، يبدون رغبة في القتال، وفي مباغتة اليهود في المستعمرات. وكنا نطمح إلى جمع الأموال من أجل شراء سلاح أكثر تطوراً، غير أن أغنياءنا . للأسف . لم يقفوا إلى جانبنا في ذلك الوقت.

حلّ الخامس عشر من أيار/مايو ونحن في هذا الوضع البائس، وبات همنا تصيُّد الأخبار، وترقب الأحداث. وفي تلك الأيام، كان لا بد من اقتناء بندقية، ومثلما فعل كثيرون، بعت جزءاً من "ذهبات" زوجتي أم أحمد واشتريت بثمنها بندقية.

في أحد أيام صيف سنة ١٩٤٨، وكان . كما أذكر . اليوم الأول من شهر رمضان، سمعنا أن مسؤولَيْن من مستعمرة قطرة اليهودية القريبة (كانوا هم يسمونها غديرا)، أحدهما يدعى خسكي والآخر شيكي، جاءا إلى المسمية الكبيرة، وبلّغا رجالها

المتنفذين من أمثال محمد عبد العزيز مهنا، وحسن عبد العزيز مهنا، أن عليهم تسليم القرية بما فيها من بنادق، وإلاّ فإن اليهود سيدخلونها بالقوة. وقد شاع الخبر بسرعة، ووصل إلى المسمية الصغيرة.

حملت بندقيتي وتوجهت مع اثنين من أبناء قريتنا، هما حسن علي صالح ومحمد عبد المحسن، إلى المسمية الكبيرة لتقصي الأخبار ومعرفة مدى الحقيقة في ما يشاع، فوجدنا أن التهديدات قد فعلت فعلها في الأهالي. ترافق ذلك مع الحرب النفسية التي كانت تشنها إذاعة الشرق الأدنى البريطانية وتعزف لنا فيها على وتر أعراضنا التي سوف تُنتهك، مذكِّرة بما حدث في دير ياسين، ومهوِّلة أحداثها. ولا شك في أنهم نجحوا في إلقاء الرعب في نفوس الناس، الذين شرعوا في مغادرة بيوتهم قبل أن يتسنى لنا إطلاق رصاصة واحدة!

عمّت حالة من الفوضى الهائلة، يحركها هاجس الخوف على العرض. وللأسف، لم يكن أحد يدرك أنه بمغادرته الأرض فقد العرض ايضاً..

رأيت جموع الناس المرعوبة وهي تغادر قراها. لم يقتصر الأمر على المسمية الصغيرة والمسمية الكبيرة، فقد خرج أهالي قرى التينة وإدنبة ومغلِّس وتل الصافي وغيرها. كانت الجموع هائمة على وجوهها، تبحث عن مأوى، وتظن أن غيابها عن بيتها وأرضها لن يستمر طويلاً.. ساعات أو بضعة أيام، وأن الجيوش العربية لا ريب أنها قادمة.

توزّع الناس في كل الجهات، كل ذهب إلى الاتجاه الذي له فيه أقارب أو أنسباء. نحن توجهنا إلى قرية عَجُّور، حيث يقيم هناك أخ لي من أم أُخرى، وحيث كان قرب المسافة يتيح لي فرصة التسلل إلى بيتنا في المسمية والعودة ببعض الحاجات التي تساعدنا في حياتنا الجديدة في عجور. أقمنا هناك نحو خمسة شهور لم أعمل فيها شيئاً سوى التسلل إلى المسمية، التي مضت عليها شهور شتاء ذلك العام وهي خاوية من البشر، لم يسكنها عربي أو يدخلها يهودي، وقد ظلت بيوتها مشرّعة للرياح والأمطار، بل إن بعضها سقط بفعل عوامل الطبيعة.. أمّا دواجنها وأغنامها، فنفقت.

جاءت إلى عجور خلال تلك الفترة كتيبة من كتائب المجاهدين المصريين المدنيين مؤلفة من بضع عشرات من الرجال، يعتقد أنهم من جماعة الإخوان المسلمين، وكانوا بقيادة رجل يوغسلافي قيل إنه مسلم. أقامت المجموعة في مدرسة القرية بعض الوقت، وكان رجالها يسألون الأهالي عن السلاح. كنت قد بعت بندقيتي

في عجور بعد أن يئست من إمكان استخدامها. أمّا كتيبة المجاهدين المصريين، فقد غادرت القرية من دون أن يتسنى لها القتال!

عندما بدأ الهجوم على القرى القريبة، توجهنا من عجور إلى عين القف، ومنها إلى سعير، حيث استقر أخي هناك، بينما واصلت رحلتي إلى أريحا، ومنها عدت إلى الخليل.. وقد استقر بنا المقام بمخيم العروب.

قام الصليب الأحمر بتوزيع الخيام على اللاجئين هناك، وقد بذلت جهداً مضنياً للحصول على واحدة، ففشلت. وكان مسؤول المخيّم الفرنسي (يقال له ديغول) يحيط نفسه بمجموعة من النفعيين، فاضطررت إلى شراء الخيمة بأحد عشر ديناراً، وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت..

أقمت مع عائلتي بالخيمة. كنت محبطاً من الوضع السياسي إلى حدٍ مَرَضي أقعدني عن العمل مدة تزيد على العامين، كنا خلالها نعتاش من مدّخرات زوجتي ونبيع ما تبقى من "ذهباتها" لنأكل.

كان العيش في الخيام بائساً إلى حدٍ يستعصي على الوصف. فكم من مرة اقتلعتها الرياح ووجدنا أنفسنا نائمين في العراء. وأذكر ذلك اليوم الشتوي الذي عدت فيه من سعير، حيث كنا في زيارة لأخي، فرأيت الخيام تختفي تماماً تحت بياض الثلج، بينما الماء يغرقها من الداخل، بفرشها وأشيائها القليلة، وكانت الجرافات تحاول مساعدة الناس في التغلب على العاصفة الثلجية القاسية التي داهمتهم.

ازداد وضعنا بؤساً عندما استنفدنا تماماً كل مدخراتنا. فاجأتني زوجتي أم أحمد بذلك، لكنها في الوقت نفسه حرضتني على العمل وشحنت طاقاتي الكامنة وكل قواي.

اشتغلت عامل بناء في العروب بربع دينار في اليوم، فتحسنت أحوالي الاقتصادية والنفسية، وعندما انتقلت إلى عمّان مع المتعهد نفسه، عملت بأجرة دينار كامل في اليوم. أبقيت عائلتي في العروب وعملت في عمّان عشرة أعوام متتالية، كنت خلالها أتردد إلى العروب، إلى أن سافرت إلى السعودية للعمل مراقباً لعمّال البناء في جدة.. حتى وقعت حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧.

أذكر ذلك اليوم جيداً. رفعت مؤشر المذياع ووضعته في مكان عالٍ، وطلبت من العمال أن يتوقفوا عن العمل، حتى يتسنى للجميع سماع أنباء الحرب. كنا نظن، نحن العمال الفلسطينيين، أن عودتنا إلى أرضنا وقرانا باتت قريبة!

وفي اليوم التالي كنا في طريقنا إلى الأردن، على أمل أن تتسنى لنا فرصة المشاركة في القتال من أجل استرجاع فلسطين والعودة إلى أرضنا فيها. غير أننا فُجعنا في عمّان بجموع النازحين الذين كانوا يتدفقون عبر النهر في اتجاه الشرق، فتأكد لنا سقوط الضفة الغربية...

لم أجد بداً من عبور النهر متسللاً إلى الضفة الغربية المحتلة. دخلتها مع زميل لي من قرية زكريّا، مشينا إلى أريحا، ومنها صعدنا الطريق سيراً على الأقدام لنبيت ليلتنا في العيزرية.. ثم واصلنا سيرنا في اليوم التالي، حتى وصلنا إلى العروب.

كان القرار بمواصلة تعليم الأولاد أحد أهم الدوافع لمغادرة مخيّم العروب.

... وبعد سبعة عشر عاماً متواصلة من حياة العائلة في المخيم، توجهنا إلى الضفة الشرقية، حيث ما زلنا نعيش، منذ ذلك الوقت، في منطقة عين الباشا الملاصقة لمخيم البقعة، القريب من العاصمة عمّان.

لم أحقق حلمي بالعودة إلى المسمية..

فقط، حققت حلمي بتعليم الأولاد..

في أيار/مايو، سيعود ابني حاملاً شهادة الدكتوراه في الآثار، من جامعة السوربون، في باريس. ■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf